قَتَادَةُ بنُ دِعامَةَ السَّدوسيِّ
وَدَوْرُ مَرْوِيّاتِهِ فِي دَعْمِ التَّفسِيرِ

أحمد جاسم ثاني الركابي
كلية أصول الدين الجامعة/ ميسان - العراق

فحوى البحث

يقوم البحث على بسط جهود ودور تابعيٍّ جليل هو قتادة بن دعامة السَّدوسي في تفسير القرآن الكريم مستفيداً من النبي الاكرمﷺ والصحابة الكرام وشيوخه من التابعين وفي مقدمتهم الحسن البصري.

يبدأ البحث ببسط حياة (قتادة) وسيرته ومذهبه وعلمه ومصادر رواياته ومنهجه في التفسير ومنها:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- تفسير القرآن بالسنة النبوية.
- تفسير القرآن باقوال الصحابة والتابعين.

ثم يضرب أمثلة تطبيقية مما روي عنه في كتب التفسير في العصور التي تلت عصره كتفسير الطبري والطوسي.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم السلام على محمدٍ وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، الذين خصهم الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[سورة التوبة: ١٠٠].

مدخل:

تفسير القرآن الكريم في عهد التابعين

في البدء لابد لنا من الوقوف على تعريف مفردة التابعين، فهي جمع لكلمة تابعي، والتابعي ((هو من لم يرَ رسول الله ﷺ، لكنه آمن به والتقى أحد الصحابة وكان له معه مقابلة أو مقابلات ولقاء وحوار، ثم ظل على هذه الحال من الإيمان حتى رحل عن الدنيا))[(١)]، فلم يكد ينتهي عهد الصحابة حتى ظهر رجال أكفاء، ليخلفوهم ويحملوا أمانة الله ويبلغوا رسالته في الأرض، وهم التابعون الذين اتبعوهم بإحسان، فمثلوا بين يدي أكابر الصحابة الأعلام، ونهلوا من علومهم واهتدوا بهديهم، وأسهموا بشكل كبير في نشر تعاليم الإسلام ومفاهيم الكتاب والسنة النبوية المطهرة في مختلف المدن الإسلامية[(٢)]، ((ولاشك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم، لقرب عهدهم من عهد النبوة، واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة، ولعدم فساد سليقتهم العربية، والفساد الذي شاع فيما بعد، حتى بلغ درجة الهجنة والمزيج اللغوي))[(٣)].

وحيثما ارتحل الصحابي وحل في بلد إسلامي كان قد شيَّد فيه مدرسة واسعة الرحب يقصدها طلاب العلم، ويستقون علوم الكتاب والسنة من روادها الأوائل، فظهرت عدة مدارس لتفسير القرآن الكريم وأشهرها: مدرسة مكة التي أسسها عبد الله بن عباس، ومدرسة المدينة التي

(١) مدارس التفسير الإسلامي، علي أكبر بابائي: ١/ ٢٧٥.

(٢) ينظر: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الشيخ محمد هادي معرفة: ١/ ٣١٥.

(٣) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي: ١/ ٩٤-٩٥.

أسسها أبي بن كعب الأنصاري، ومدرسة الكوفة التي أسسها عبد الله بن مسعود، ومدرسة البصرة التي أسسها أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري، واشتهر فيها الحسن البصري وقتادة، ومدرسة الشام التي أسسها أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي الأنصاري[٤].

طبيعة تفسير التابعين:

لقد واجه التفسير في عهد الصحابة والتابعين مشكلة لغوية وتاريخية متمثلة بالنص القرآني الكريم، فالكلام في اللغة العربية تشترك في تحديد معناه عوامل مختلفة يمكن تلخيصها بما يأتي[٥]:

١. الوضع اللغوي للفظ، فإن كل لفظ في اللغة له معنى خاص ومحدد.
٢. القرائن اللفظية ذات التأثير الخاص على الوضع اللغوي، التي تسبب صرف اللفظ من معناه الحقيقي إلى المعنى المجازي.
٣. القرائن الحالية التي يكون لها تأثير خاص على المدلول اللفظي، وهي الأحوال والظروف والملابسات التي تحيط بالنص.

وهذه العوامل الثلاثة تشترك في تحديد دلالة الألفاظ والتراكيب، فعندما يحاول المفسر فهم القرآن ويصطدم بإحدى هذه الأمور فهو يواجه مشكلة لغوية، وعندما يحاول أن يتعرف على خصوصيات الأحوال والظروف الموضوعية لعصر نزول القرآن الكريم، أو التي سبقت عصر النزول كقصص الأنبياء والأقوام الماضين، أو التي تنبأ القرآن الكريم بوقوعها في المستقبل فإن ذلك يمثل مشكلة تاريخية[٦].

وفي ضوء هذا التحديد للمشكلة اللغوية والتاريخية التي واجهت التفسير آنذاك تتضح طبيعة المرحلة التفسيرية التي مر بها التابعون حينما واجهوا الكلام الإلهي (النص القرآني الكريم) وحاولوا معرفة معانيه ومدلولاته، فالذي يطلع على تفسير التابعين يجد ثلاثة محاور رئيسة كانت موضع اهتمام المفسرين، وهي[٧]:

(٤) ينظر: التفسير والمفسرون: (م. س) ١/ ٣١٥-٣٢٠.
(٥) ينظر: علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم: ٢٥٧-٢٥٨.
(٦) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٨.
(٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٨.

أ. التعرف على الدلالة المعجمية للمفردات القرآنية، مع مقارنة النص القرآني بكلام العرب لتحديد الاستعارة القرآنية.

ب. تتبع أسباب النزول والحوادث التاريخية والأحوال التي ارتبطت ببعض الآيات القرآنية.

ج. ذكر التفصيلات التي وردت في أحاديث الرسول الأعظمﷺ، وما ورد في النصوص الإسرائيلية من قصص الأنبياء أو غيرها من الحوادث التي أشار إليها القرآن الكريم.

وكل من هذه المحاور له علاقة وثيقة باكتشاف المعنى القرآني لغوياً وتاريخياً؛ لأنها تنتهي إلى العوامل المؤثرة في تكوين دلالة الألفاظ والتراكيب، وتشخص الظروف والأوضاع في حركة التاريخ[٨].

مصادر المعرفة التفسيرية للتابعين:

كان التلقي عن الصحابة في التفسير هو العنصر الأول والمفضل للمفسرين في هذه المرحلة، ثم أخذوا بالتوسع والتطور فاعتمدوا مصادر مختلفة لمواجهة المشكلة اللغوية والتاريخية وفهم النص القرآني وتفسيره، وهذه المصادر تقترب من المصادر التي اعتمدها الصحابة من قَبْلهم، وذلك لتقارب العصرين، وهي كالآتي[٩]:

أولاً: القرآن الكريم: فالقرآن كما عبر عنه أمير المؤمنينعليه السلام: ((يَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ))[١٠]، فيه تفصيل المجمل وتقييد المطلق وتخصيص العام، ونسخ ما أثبته من حكم سابق، وهذه الطريقة القرآنية تتيح للمفسر أن يستفيد من بعض الآيات القرآنية ليفهم بها بعض الآيات الأخرى.

ثانياً: المأثور عن النبيﷺ في تفسير القرآن: فقد كان الرسول الأكرمﷺ يفسر القرآن الكريم بشكل عام، وإن لم يكن قد فسره كله، إلا إنه كان يفسر القرآن بمقدار ما تفرضه ظروفه بصفته صاحب رسالة ودعوة إلى الله تعالى، وقائد دولة تواجهه

(٨) ينظر: علوم القرآن: ٢٥٨.

(٩) ينظر: التفسير والمفسرون: ١/ ٧٦، وعلم التفسير، الدكتور محمد حسين الذهبي: ٢٩، والتفسير والمفسرون في ثوبه القشيب للشيخ معرفة: ٤٤٧ -٤٥١، وعلوم القرآن: ٢٦٢-٢٦٨.

(١٠) نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام: ٢/ ١٧.

مشاكل المسلمين وأسئلتهم، فيبين المفاهيم العامة عن الإسلام وتشريعاته، وكان ما يصدر منه يتلقاه الصحابة ويحفظه الكثير منهم، واعتمدوا عليه من بعده في إيضاح بعض معاني القرآن، ثم نقلوه إلى التابعين.

ثالثاً: مراعاة أسباب النزول: فهي تشكل جزءاً من القرائن الحالية التي توضح المعنى القرآني، وتسهم في حل المشكلة اللغوية والتاريخية التي واجهت المفسرين بعد رسول الله ﷺ، وذلك بالرواية عن الصحابة الذين عاصروا الأحداث والمناسبات التي رافقت زمن النزول، والتعرف على ظروفها وخصوصياتها، ومن ثم التعرف على ما تمنحه للمعنى القرآني من إيضاح وتبيين.

رابعاً: معرفة اللغة العربية المتداولة في كلام العرب على اختلاف لهجاتها، فإن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وطبيعة المرحلة التي تواجه النص القرآني بوصفه مشكلة لغوية تفرض أن تكون اللغة العربية من أبرز مصادر التفسير.

خامساً: العلوم والمعارف المستجدة التي اكتسبها المسلمون بفضل التوسع في رقعة الإسلام، والانفتاح على الآداب والثقافات الواردة من الأمم التي دخلت في دين الله أفواجاً، وقد أفاد منها التابعون في فهم معاني كلام الله تعالى.

سادساً: نصوص من كتب العهدين: فكان التابعون يرجعون إلى بعض هذه النصوص التي فيها تفصيل لما أجمله القرآن، مما لا يحتمل فيها التحريف، كما في تاريخ أنبياء بني إسرائيل وسيرة ملوكهم وغيرها من قصصهم وأخبارهم.

ولعل السبب الرئيس الذي حدا بالصحابة والتابعين إلى أن يلجئوا إلى أهل الكتاب في تفسيرهم هو إقصاؤهم أهل البيت عليهم السلام عن المرجعية الفكرية[11]، وهم بذلك فقدوا العنصر الخارجي الأصيل، وهو الوحي الإلهي الذي تلقاه النبي ﷺ وقام بتعليمه وتفسيره، والدور التعليمي المهم الذي كان من المفترض أن يؤديه الإمام علي عليه السلام ومدرسته، أما أهل الكتاب الذين كانوا يمثلون مصدراً من مصادر التفسير فهم عنصر خارجي غير أصيل[12].

(١١) ينظر: علوم القرآن: ٢٦٧.

(١٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٧١.

سابعاً: ما يفتحه الله عليهم من طريق الاجتهاد والنظر في كتاب الله تعالى، وذلك بإعمال النظر والاعتماد على بعض الدلائل والقرائن التي تساعدهم على فهم الآيات.

(قتادة بن دعامة السدوسي)

اسمه ونسبه:

هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ولد مكفوف البصر[١٣]، (سنة ٦١) للهجرة، عاش في مرحلة التابعين، وتوفي (سنة ١١٧) للهجرة وهو في سن السادسة أو السابعة والخمسين[١٤].

مذهبه:

لم تصرح كتب الرجال بمذهبه، إلا أن هناك من يرى وجود بعض القرائن التي تدل على أنه كان من أهل السنة، ومن هذه القرائن[١٥]:

١. ورود ترجمته في كتب رجال السنة وإهمالها في أغلب كتب رجال الشيعة.

٢. إنه من الذين قالوا: «سلوني»[١٦] كما قالها غيره من أهل السنة، بينما لا يوجد أحد من الشيعة من ادعى ذلك؛ لأنها خاصة بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

٣. نُسب إليه القول بالقدر، ولا يوجد أحد في الشيعة من يعتقد بذلك.

وهناك رأي آخر مخالف تماماً لهذا الرأي، يتبناه الشيخ محمد هادي معرفة الذي يرى أن رميه بالقدر كان بسبب قوله بالعدل، حسبما كان يقول به شيخه الحسن البصري، وكانت العامة ممن تأثروا بمذهب أبي موسى الأشعري وحفيده أبي الحسن الأشعري يرون خلاف ذلك، إذ يرون أن الأفعال كلها مخلوقة لله وعن إرادته، وليس للعبد اختيار في عمله[١٧]، ثم يصرح الشيخ (معرفة) بمذهب قتادة

(١٣) ينظر: تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: ٨/ ٣١٥، والكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي: ٢/ ٥١.

(١٤) ينظر: تهذيب التهذيب: ٨/ ٣١٨.

(١٥) ينظر: مدارس التفسير الإسلامي: ١/ ٣٧٤-٣٧٥.

(١٦) يُروى ((أن قتادة دخل الكوفة فقال: سلوا عما شئتم، فسألوه عن نملة سليمان أذكر هي أم أنثى، فلم يعلم فأفحم)). مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي: ٤/ ٤١٣، ولمزيد من التفصيل ينظر: الإمام علي عليه السلام، أحمد الرحماني الهمداني: ٣٥٦-٣٥٨.

(١٧) ينظر: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ١/ ٤١٣.

بقوله: ((هذا، وقد عُرف قتادة السدوسي بالولاء لأهل البيت وعلى رأسهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وفي التاريخ منه مواقف مشرِّفة سجَّلها أهل السير والحديث))[18]، وينقل ثلاث روايات تدعم رأيه، أولها رواية تحكي ما جرى من محاورة بين قتادة وخالد بن عبد الله القسري[19]، إذ سأله خالد عدة أسئلة عن أحوال العرب في وقعة بدر ومنها سؤاله: ((... وَيْلَكَ يَا قَتَادَةُ مَن الذي يَقُولُ: «أُوفي بِمِيعَادِي وَأَحْمِي عَنْ حَسَبْ» فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ لَيْسَ هَذَا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ أُحُدٍ خَرَجَ طَلْحَةُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ وَهُوَ يُنَادِي: مَنْ يُبَارِزُ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِ أَحَدٌ فَقَالَ إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ تُجَهِّزُونَا بِأَسْيَافِكُمْ إِلَى النَّارِ وَنَحْنُ نُجَهِّزُكُمْ بِأَسْيَافِنَا إِلَى الْجَنَّةِ فَلْيَبْرُزَنَّ إِلَيَّ رَجُلٌ يُجَهِّزُنِي بِسَيْفِهِ إِلَى النَّارِ وَأُجَهِّزُهُ بِسَيْفِي إِلَى الْجَنَّةِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَهُوَ يَقُولُ:

أَنَا ابْنُ ذِي الْحَوْضَيْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ
وَهَاشِمِ الْمُطْعِمِ فِي الْعَامِ السَّغِبْ
أُوفِي بِمِيعَادِي وَأَحْمِي عَنْ حَسَبْ

فَقَالَ خَالِدٌ لَعَنَهُ اللَّهُ: كَذَبَ لَعَمْرِي وَاللَّهِ أَبُو تُرَابٍ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَقَالَ الشَّيْخُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ ائْذَنْ لِي فِي الانصرَاف قَالَ: فَقَامَ الشَّيْخُ يُفَرِّجُ النَّاسَ بِيَدِهِ وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: زِنْدِيقٌ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ زِنْدِيقٌ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ))[20].

ويعلق الشيخ معرفة على هذه الرواية قائلاً: ((هذا ينبئك عن ولاء قتادة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام))[21].

وفي الرواية الثانية يذكر ما نقله أبو حمزة الثمالي من التأنيب الذي وجهه الإمام الباقر عليه السلام لقتادة، إذ جاء فيها: ((... أَقْبَلَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وَحَوْلَهُ أَهْلُ خُرَاسَانَ وَغَيْرُهُمْ يَسْأَلُونَهُ عَنْ مَنَاسِكِ الْحَجِّ فَمَضَى حَتَّى جَلَسَ

(١٨) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ١/ ٤١٣.

(١٩) كان عاملًا لهشام بن عبد الملك على العراقَيْن، وهو ملحد زنديق عدو للإمام علي عليه السلام فلا يتوانى عن لعنه على المنابر، أبوه عبد الله بن يزيد من أصل يهود تيماء وأمه رومية نصرانية، وكان يقول: لو أمرني هشام بتخريب الكعبة لهدَّمتها ونقلت حجارتها إلى الشام. ينظر: سفينة البحار، المحدث القمي: ١/ ٤٠٦.

(٢٠) الكافي، الشيخ الكليني: ٨/ ١١٢ -١١٣.

(٢١) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ١/ ٤١٥.

مَجْلِسَهُ وَجَلَسَ الرَّجُلُ قَرِيباً مِنْهُ قَالَ أَبُو حَمْزَةَ: فَجَلَسْتُ حَيْثُ أَسْمَعُ الْكَلَامَ وَحَوْلَهُ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا قَضَى حَوَائِجَهُمْ وَانْصَرَفُوا الْتَفَتَ إِلَى الرَّجُلِ فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ قَالَ: أَنَا قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ الْبَصْرِيُّ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَنْتَ فَقِيهُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: نَعَمْ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: وَيْحَكَ يَا قَتَادَةُ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ خَلَقَ خَلْقاً مِنْ خَلْقِهِ فَجَعَلَهُمْ حُجَجاً عَلَى خَلْقِهِ فَهُمْ أَوْتَادٌ فِي أَرْضِهِ قُوَّامٌ بِأَمْرِهِ نُجَبَاءُ فِي عِلْمِهِ اصْطَفَاهُمْ قَبْلَ خَلْقِهِ أَظِلَّةً عَنْ يَمِينِ عَرْشِهِ قَالَ: فَسَكَتَ قَتَادَةُ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْفُقَهَاءِ وَقُدَّامَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَا اضْطَرَبَ قَلْبِي قُدَّامَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا اضْطَرَبَ قُدَّامَكَ قَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: وَيْحَكَ أَتَدْرِي أَيْنَ أَنْتَ؟. أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾[سورة النور: ٣٦-٣٧] فَأَنْتَ ثَمَّ وَنَحْنُ أُولَئِكَ فَقَالَ لَهُ قَتَادَةُ: صَدَقْتَ وَاللَّهِ جَعَلَنِيَ اللَّهُ فِدَاكَ وَاللَّهِ مَا هِيَ بُيُوتُ حِجَارَةٍ وَلَا طِينٍ...))[٢٢].

(٢٢) الكافي: ٦/ ٢٥٦ -٢٥٧.

ومما تقدم يمكننا أن نسلك طريقاً ثالثاً وسطاً فنقول: إن قتادة بن دعامة كان من أهل السنة المعتدلين الذين يجلّون أهل البيت عليهم السلام ويودّونهم، وكما هو الحال في كل زمان، إذ نجد التاريخ حافلاً بهذه النماذج الإنسانية الطيبة التي نالتهم رحمة الله تعالى فأبصروا طريق الحق وتمسكوا بالثقلين كتاب الله والعترة الطاهرة، وخير ما يؤيد هذا الرأي ما نقله الذهبي عن عفان عن قيس بن ربيع قال: ((قدم علينا قتادة الكوفة، فأردنا أن نأتيه فقيل لنا: إنه يبغض علياً رضي الله عنه فلم نأته، ثم قيل لنا بعد: إنه أبعد الناس من هذا، فأخذنا عن رجل عنه))[٢٣].

أساتذته في التفسير:

لم يعثر الباحثون على أستاذ خاص لقتادة في التفسير سوى من ذكرهم ابن حجر ممن روى عنهم قتادة، ومن بين الصحابة الذين روى عنهم: أنس بن مالك، وأبو الطفيل، وأبو سعيد الخدري، ومن المفسرين التابعين: الحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وعكرمة[٢٤]، إلا أن المشهور

(٢٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٥/ ٢٧٢.

(٢٤) ينظر: تهذيب التهذيب: ٨/ ٣١٥ -٣١٦،

إنه كان تلميذاً للحسن البصري وسعيد بن المسيب وقد أفاد من علمهما، وذلك بقرينة قوله: ((جالست الحسن اثنتي عشرة سنة، أصلي معه الصبح ثلاث سنين، قال: ومثلي أخذ عن مثله))[٢٥].

علمه ومكانته العلمية:

شهد عصر التابعين ازدهاراً علمياً واسعاً، واهتماماً كبيراً بنشر العلوم المختلفة، فبرز عدد من العلماء الأجلاء الذين يشار إليهم بالبنان، ومن بينهم (قتادة) الذي كان عالماً كبيراً بالأنساب وأشعار العرب والحديث فضلاً عن علمه بالفقه، حتى قيل إنه «فقيه أهل البصرة»[٢٦]، ويضيف السيوطي قائلاً: ((ومع حفظ قتادة وعلمه بالحديث كان رأساً في العربية واللغة وأيام العرب والنسب))[٢٧]، كما رُويت له آراء تفسيرية في كتب الفريقين، مما يدل على أنه كان من مفسري القرآن الكريم في عصر التابعين[٢٨]، بل من المفسرين الرواد في البصرة.

ومن جهة أخرى فقد احتل قتادة مكانة علمية كبيرة في عصره، ومرت الروايتان (الثانية والثالثة) اللتان تنقل الحوار الذي دار بينه وبين الإمام الباقر عليه السلام، وقد تضمنتا شهادة من الإمام المعصوم على أنه فقيه أهل البصرة ومفسر القرآن، فضلاً عن ذلك فقد كثرت أقوال العلماء الذين عاصروه وشهدوا له بالفضل، منها ما رواه عمرو بن عاصم الكلابي عن سلام بن مسكين عن عمران بن عبد الله قال: ((لما قدم قتادة على سعيد بن المسيب جعل يسائله أياماً وأكثر، قال: فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟. قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، قال: حتى رد عليه حديثاً كثيراً، قال: يقول سعيد: ما كنت أظن أن الله قد خلق مثلك))[٢٩]، ويروى عن سعيد بن المسيب قوله: ((ما أتاني عراقي

ومدارس التفسير الإسلامي: ١/ ٣٧٧.

(٢٥) الطبقات الكبرى، محمد بن سعيد: ٧/ ٢٢٩.

(٢٦) ينظر: الكنى والألقاب: ٢/ ٥١، والتفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ١/ ٤١١.

(٢٧) تذكرة الحفاظ، الذهبي: ١/ ١٢٣.

(٢٨) ينظر: مدارس التفسير الإسلامي: ١/ ٣٧٤.

(٢٩) الطبقات الكبرى: ٧/ ٢٣٠.

أحسن من قتادة))[٣٠]، كما ورد عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ((ما قلت لمحدث قط أعد علي، وما سمعت أذناي شيئاً قط إلا وعاه قلبي))[٣١]، وغيرها الكثير من الأحاديث التي لا يسعنا ذكرها جميعاً وكلها تشيد بعلم قتادة وفضله وقوة حفظه ومدى حرصه على التفقه والتعلم، حتى قال فيه مطر الوراق: ((كان قتادة عبد العلم))[٣٢].

آثاره القرآنية:

ذكر الدكتور فؤاد سزكين أربعة كتب لقتادة منها ثلاثة قرآنية، وهي[٣٣]:

١. الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى: حققه الدكتور حاتم صالح الضامن، وطبعته مؤسسة الرسالة في بيروت عام ١٤٠٤هـ.

٢. التفسير: وهو مفقود، ويبدو أنه كان تفسيراً كبير الحجم، وقد ذكره الطبري أكثر من ثلاثة آلاف مرة، وقد ذكرت المصادر الأخرى أن لقتادة كتاباً في تفسير القرآن[٣٤].

٣. عواشر القرآن: ذكره ابن سعد في طبقاته[٣٥]، وهو مفقود أيضاً.

اعتماد المفسرين على تفسيره:

تحتل مرويات قتادة مكانة كبيرة بين تفاسير المسلمين وللفريقين على السواء، فمن يطلع على هذه التفاسير يجد الكثير من الأقوال والآراء التفسيرية لقتادة في أغلب الآيات المفسرة، ومن ذلك مثلاً: تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني، الذي يعد من أقدم التفاسير بالمأثور يكاد يعتمد كلياً تفسير قتادة، وتفسير جامع البيان للطبري الذي يفوق تفسير عبد الرزاق بالاعتماد على تفسير قتادة؛ وذلك لتعدد الطرق التي يروي عنها الطبري على خلاف عبد الرزاق الذي اكتفى بالرواية عن معمر بن راشد فقط، وغيرها من كتب التفسير الأخرى،

(٣٠) تهذيب التهذيب: ٨/ ٣١٦.
(٣١) المصدر نفسه: ٨/ ٣١٧.
(٣٢) سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٧٦.
(٣٣) ينظر: تاريخ التراث العربي، الدكتور فؤاد سزكين: مج: ١، ج: ١، ص: ٧٥-٧٦.
(٣٤) ينظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة: ١/ ٤٥٦، وهدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي: ١/ ٨٣٤، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة: ٨/ ١٢٧.
(٣٥) ينظر: الطبقات الكبرى: ٧/ ٢٧٣.

كتفسير زاد المسير لابن الجوزي وتفسير ابن كثير وتفسير الدر المنثور للسيوطي..[٣٦]، فضلاً عن ذلك نجد أشهر تفاسير الشيعة قد اعتمدت آراء قتادة وأقواله في أغلب مباحثها التفسيرية، ومن ذلك مثلاً: التبيان في تفسير القرآن للطوسي، ومجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، والميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، والتفسير الصافي للكاشاني..وغيرها الكثير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أهمية تفسير قتادة ومكانته العلمية، ومقبولية قتادة لدى الفريقين لاعتداله.

منهجه في تأويل القرآن:

قد يلجأ قتادة إلى تأويل بعض الآيات فيحسن التأويل، كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧]، إذ تأول (الضياء) الوارد في الآية الكريمة بقوله: ((هي لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا في الدنيا ونكحوا النساء وحقنوا بها دماءهم، حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون))[٣٧]، وقد استحسنه الطبري وعده من أولى التأويلات[٣٨].

وقد يأتي تأويله ضعيفاً كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [سورة البقرة: ١٩]، إذ تأول قوله (حذر الموت): حذراً من الموت[٣٩]، وينتقد الطبري هذا التأويل بقوله: ((وذلك مذهب من التأويل ضعيف، لأن القوم لم يجعلوا أصابعهم في آذانهم حذراً من الموت فيكون معناه ما قال إنه مراد به حذراً من الموت، وإنما جعلوها من حذار الموت في آذانهم))[٤٠].

وقد يبالغ في التأويل كما في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[سورة البقرة:

(٣٦) ينظر: الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير، عزيز الرحمن عبد الأحد، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٣هـ، ص: ٥٣.

(٣٧) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ١/ ٢٠٦.
(٣٨) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٠٧.
(٣٩) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٢٧.
(٤٠) المصدر نفسه: ١/ ٢٢٧.

٢٤٥]، إذ تأول (وإليه ترجعون): وإلى التراب ترجعون، فمن التراب خلقهم وإلى التراب يعودون[٤١]، في حين أن دلالة السياق واضحة ولا تقبل أدنى شك بأن المراد منها: وإلى الله ترجعون.

منهجه في تفسير القرآن:

في ضوء الاطلاع على أقوال قتادة ومروياته التفسيرية يتضح أنه يسير على منهج سليم في التفسير، فهو يفسر القرآن بالقرآن، ويفسر القرآن بالحديث النبوي الشريف، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبأقوال الصحابة والتابعين، ولكن يؤخذ عليه أنه يذكر الإسرائيليات، ويكثر من ادعاء النسخ[٤٢]، ولم يتخذ من أئمة أهل البيت عليهم السلام مرجعية فكرية له في التفسير، بصفتهم عليهم السلام عدل القرآن الكريم.

ويمكن أن نتناول هذه النقاط وغيرها بشيء من التفصيل وكما يأتي:

١. تفسير القرآن بالقرآن:

وهو من أفضل مناهج التفسير، وقد نشأ منذ عصر نزول القرآن، إذ سلكه رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والصحابة والتابعون وجمهور المفسرين، فتتبعوا الآيات التي يفسر بعضها بعضاً، وتوصلوا إلى معاني القرآن ومقاصده؛ لأن القرآن يشتمل على وحدة موضوعية متكاملة، يكمل بعضه بعضاً، ويوضح بعضه بعضاً[٤٣].

وقد سلك قتادة في تفسير القرآن بالقرآن مسلكين؛ الأول: تفسير الآية القرآنية بآية أخرى، والثاني: تفسير الآية ومن ثم الاستشهاد بآية أخرى.

ومثال الأول: تفسيره قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [سورة العنكبوت: ٢٧]، في شأن النبي إبراهيم عليه السلام، قال: هي كقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [سورة النحل: ١٢٢][٤٤].

وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الحجر: ١٨]، قال: هي نحو قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

(٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٢/ ٨٠٦.

(٤٢) ينظر: الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير: ٦١.

(٤٣) ينظر: دروس في التفاسير ومناهج المفسرين، فارس علي العامر: ١٨.

(٤٤) ينظر: تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني: ٣/ ٩٦.

[سورة الصافات: ١٠][٤٥].

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلِّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾[سورة المرسلات: ٣٠]، إذ يفسر ﴿ ظِلِّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾ بقوله: ((هو كقوله ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[سورة الكهف: ٢٩]... والسرادق: دخان النار، فأحاط بهم سرادقها، ثم تفرق، فكان ثلاث شعب، فقال: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلِّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾: شعبة ههنا، وشعبة ههنا، وشعبة ههنا، ﴿ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ [سورة المرسلات: ٣١]...))[٤٦].

ومثال الثاني: تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[سورة الإسراء: ٦٥]، قال: وعباده المؤمنون، مستشهداً على هذا المعنى بآية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[سورة النحل: ١٠٠][٤٧].

وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾[سورة مريم: ٨٧]، ففسر (العهد) في الآية الكريمة بطاعة الله تعالى، مستدلاً على ذلك بآية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [سورة طه: ١٠٩][٤٨].

ومثال ذلك أيضاً تفسيره قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[سورة فاطر: ٣٢]، فهو يفسر (الظالم لنفسه): بالمنافق، و(المقتصد): بأنه صاحب اليمين، و(السابق بالخيرات): بالمقرب، ثم يستشهد بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [سورة الواقعة: ٨٨ -٩٤][٤٩].

(٤٥) ينظر: جامع البيان: ١٤/ ٢١.
(٤٦) جامع البيان: ٢٩/ ٢٩٦.
(٤٧) ينظر: جامع البيان: ١٥/ ١٥٣.
(٤٨) ينظر: جامع البيان: ١٦/ ١٦٠.
(٤٩) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢/ ١٦٢ -١٦٣.

٢. تفسير القرآن بالسنة النبوية:

من المعلوم أن السنة النبوية تمثل أقوال النبي الأكرمﷺ وأهل بيته الطاهرينعليهم السلام وفعلهم وتقريرهم (عند أتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام)، أما عند غيرهم فالسنة تمثل ما جاء عن رسول اللهﷺ وحده[٥٠].

وتعد السنة الشريفة المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في التشريع والفكر الإسلامي، وفي التعريف بمفاهيم القرآن الكريم، وشرح مقاصده، وتوضيح ما خفي من مجملاته[٥١].

ومن الملاحظ أن قتادة مقل بالرجوع إلى أهل البيتعليهم السلام في التفسير، ويبدو أنه لم يعدهم ضمن السنة الشريفة، إلا أن ذلك لا يمنع أن يتقبل منهم شيئاً من التفسير إن صادف والتقى بأحدهمعليهم السلام.

ومن أمثلة تفسير قتادة بالسنة النبوية:

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٨]، إذ فسر (الصلاة الوسطى) بصلاة العصر، وذلك لقول رسول اللهﷺ يوم الأحزاب: ((اللهم املأ قلوبهم وبيوتهم ناراً، كما شغلونا -أو كما حبسونا -عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس))[٥٢].

كما روى قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبيﷺ قال: ((الصلاة الوسطى صلاة العصر))[٥٣].

وكذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣]، فقد فسر (ويكون الدين لله) بأن يقال: لا إله إلا الله، وذلك لقول رسول اللهﷺ: ((إن الله أمرني أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))[٥٤].

٣. تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

ومثاله ما أورده في تفسير قوله تعالى:

(٥٠) ينظر: دروس في التفاسير ومناهج المفسرين: ٢٣.

(٥١) ينظر: مقدمات في علم التفسير، السيد صدر الدين القبانجي: ١٠٦ -١٠٧.

(٥٢) جامع البيان: ٢/ ٧٥٧.

(٥٣) المصدر نفسه: ٢/ ٧٥٩.

(٥٤) المصدر نفسه: ٢/ ٢٦٦.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ...﴾ [سورة الحجر: ٢٤]، قال: ((كان ابن عباس يقول: آدمعليه السلام ومن مضى من ذريته))[٥٥].

ومثال ذلك ما نقله عن الحسن البصري في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [سورة الحجر: ٤١]، قال: ((... هذا طريق علي بن أبي طالبعليه السلام ودينه، طريق ودين مستقيم فاتبعوه وتمسكوا به فإنه واضح لا عوج فيه))[٥٦].

٤. تفسير القرآن بأسباب النزول:

من منهجه أنه يفسر القرآن بأسباب النزول وهو كثير في تفسيره[٥٧]، من ذلك ما روي عنه أنه قال: ((لما ذكر الله العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٦]))[٥٨].

ومن عادته في ذكر أسباب النزول أن يذكر بعض عادات العرب في الجاهلية[٥٩]، ومن ذلك ما جاء في تفسيره قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ...﴾ [سورة البقرة: ١٨٩]، قال: ((سألوا نبي اللهعليه السلام عن ذلك: لم جعلت هذه الأهلة؟. فأنزل الله فيها ما تسمعون: هي مواقيت للناس فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجهم وعدة نسائهم ومحل دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه))[٦٠].

٥. تفسير المفردات القرآنية:

ومن منهجه تفسير المفردات القرآنية، وذلك بأن يختار الكلمة الغريبة أو الغامضة من الآية الكريمة، ثم يأتي بمعناها اللغوي، مراعياً بذلك دلالتها في الاستعمال القرآني وموضعها السياقي، وهي ظاهرة بارزة في تفسيره.

(٥٥) جامع البيان: ١٤/ ٣٢.
(٥٦) الطرائف، ابن طاووس الحسني: ٩٦-٩٧، وينظر: شواهد التنزيل، الحاكم الحسكاني: ١/ ٧٨، إذ ينقل المعنى ذاته للآية الكريمة بتفسير الإمام الباقرعليه السلام.
(٥٧) ينظر: الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير: ٧٣.
(٥٨) تفسير القرآن: ١/ ٤١.
(٥٩) ينظر: الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير: ٧٦.
(٦٠) جامع البيان: ٢/ ٢٥٣.

من ذلك مثلاً تفسيره مفردة (التقديس) الواردة في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠]، إذ فسرها بالصلاة[٦١].

وكذلك مفردة (صَيِّب) الواردة في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...﴾ [سورة البقرة: ١٩]، فسرها بالمطر[٦٢].

وفي تفسيره قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨]، يذكر معاني مفردات الآية الكريمة بقوله: ((«صم» لا يسمعون الحق «بكم» لا ينطقون به «عمي» لا يرجعون عن ضلالتهم...))[٦٣].

وفي قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٤]، إذ فسر (السري) بأنه الجدول، وهي تسمية أهل الحجاز[٦٤].

٦. ذكره بعض مقاطع القصص القرآني:

كما في قصة ذي القرنين التي ذكر بعض جزئياتها بقوله: ((إن ذا القرنين بنى السد على أحد وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة دون السد فهم الترك))[٦٥].

وكذلك في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح التي يقول فيها: ((قيل لموسى آية لقياك إياه أن تنسى بعض متاعك، وكان موسى وفتاه تزودا حوتاً مملوحاً حتى إذا كانا حيث شاء الله رد الله إلى الحوت روحه فسرب في البحر، فذلك قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾...))[٦٦].

٧. تفسير الأمثال القرآنية:

كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧]، إذ يقول: ((هذه ثلاثة أمثال ضربها الله تعالى في مثل واحد، شبه نزول القرآن بالماء الذي ينزل من السماء، وشبه القلوب بالأودية والأنهار، فمن

(٦١) ينظر: تفسير القرآن: ١/ ٤١.
(٦٢) ينظر: التبيان: ١/ ٩١.
(٦٣) التبيان، الشيخ الطوسي: ١/ ٨٨ -٨٩، وينظر: مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ١/ ١١٥.
(٦٤) ينظر: جامع البيان: ١٦/ ٨٩.
(٦٥) بحار الأنوار، للمجلسي: ٦/ ٢٩٨.
(٦٦) التبيان: ٧/ ٦٦.

استقصى في تدبره، وتفكر في معانيه، أخذ حظاً عظيماً منه كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بها أداه إلى التصديق بالحق على الجملة كان أقل حظاً منه كالنهر الصغير، فهذا مثل. ثم شبه الخطوات ووساوس الشيطان بالزبد يعلو على الماء، وذلك من خبث التربة، لا عين الماء. كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فمن ذاتها، لا من ذات الحق. يقول: فكما يذهب الزبد باطلاً، ويبقى صفوة الماء، كذلك يذهب مخايل الشك هباءً باطلاً، ويبقى الحق، فهذا مثل ثانٍ. والمثل الثالث قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ إلى آخره، فالكفر مثل هذا الخبث الذي لا ينتفع به، والإيمان مثل الماء الصافي الذي ينتفع به))[٦٧].

وتحليل الصور البيانية التشبيهية التي بنيت عليها الأمثال في الآية الكريمة، يكشف عن الدقة التي امتلكها قتادة في التفسير، وتمكنه من الأساليب البلاغية التي جاء عليها القرآن الكريم.

٨. ذكر المواعظ والحكم والحث على الأخلاق:

يمتاز تفسير قتادة بذكر المواعظ والحث على الأخلاق مما قل نظيره في تفاسير عصره، فإذا مر بآية فيها عظة وعبرة توقف عندها ونبه على ما فيها من دروس أخلاقية، ويبدو أنه متأثر بشيخه الحسن البصري المعروف بالوعظ، فضلاً عن استعماله التعبير الجمالي المؤثر[٦٨].

ومثال ذلك ما ورد في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٧]، قال: ((هذا ميثاق أخذ الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة، ولا يتكلفن رجل ما لا علم له به، فيخرج من دين الله، فيكون من المتكلفين، كان يقال: مثل علم لا يقال به كمثل كنز لا ينفق منه، ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب. وكان يقال: طوبى لعالم ناطق،

(٦٧) مجمع البيان: ٦/ ٣٠.

(٦٨) ينظر: الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير: ٨٥.

وطوبى لمستمع واعٍ. هذا رجل علم علماً فعلَّمه وبذله ودعا إليه، ورجل سمع خيراً فحفظه ووعاه، وانتفع به))[٦٩].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ [سورة الشورى: ٢٧]، قال: ((كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك))[٧٠].

٩. تفسير القرآن بالناسخ والمنسوخ:

من منهجه الإكثار من التفسير بالناسخ والمنسوخ، وقد سبق أن ذكرنا له كتاباً بعنوان (الناسخ والمنسوخ) الذي حققه الدكتور حاتم صالح الضامن، وقد جُمعت فيه أقوال قتادة ومروياته في التفسير بالناسخ والمنسوخ.

ومن أمثلة ذلك تفسيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٢]، إذ يرى أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ ... ﴾ [سورة التغابن: ١٦]، وعليها بايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما استطاعوا[٧١].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ... ﴾ [سورة الجاثية: ١٤]، قال قتادة: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [سورة الأنفال: ٥٧]، ثم استدل بآية أخرى تدعم رأيه، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [سورة التوبة: ٣٦]، ويفسر هذه الآية بأنه تعالى أمر بقتالهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[٧٢].

١٠. فواتح السور (الحروف المقطعة):

يرى قتادة أن الحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض سور القرآن الكريم هي أسماء للقرآن، وقد وضع قاعدة كلية لتفسير هذه الحروف، وذلك في تفسيره (يس) الواردة في سورة يس إذ قال: ((كل هجاء في القرآن اسم من أسماء القرآن))[٧٣].

(٦٩) جامع البيان: ٤/ ٢٦٩.
(٧٠) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥/ ٤٠.
(٧١) ينظر: المصدر نفسه: ٤/ ٤١.
(٧٢) ينظر: جامع البيان: ٢٥/ ١٨٨.
(٧٣) المصدر نفسه: ٢٢/ ١٧٨، وينظر: التبيان: ١/ ٤٧، ومجمع البيان: ١/ ٧٦، و٨/ ٣٤٣

ومن ذلك مثلاً تفسيره (حم) في سورة غافر، إذ فسرها بأنها اسم من أسماء القرآن، وكذا الأمر في تفسيره (ق) في سورة ق[٧٤].

١١. تفسير القرآن بالقراءات القرآنية:

من ذلك تفسيره (الصوم) بالصمت في قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٦]، قال: ((في بعض الحروف صمتاً وإنك لا تشاء أن تلقى امرأة جاهلة تقول نذرت كما نذرت مريم ألا تكلم يوماً إلى الليل وإنما جعل الله تلك آية لمريم وابنها ولا يحل لأحد أن ينذر صمتاً يوماً إلى الليل، وأما قوله صوماً فإنها صامت من الطعام والشراب والكلام))[٧٥].

١٢. بيان مصاديق بعض الآيات القرآنية:

كثيراً ما نجد قتادة يعطي رأيه بمصداق الآية القرآنية دون أن يستدل بأية قرائن داخلية أو خارجية، وهذا يدل على سعة علمه وعمق ثقافته القرآنية، إذ تكون المعاني لديه واضحة جلية لا يحتاج فيها إلى تفكر أو تأمل، ومن ذلك تفسيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]، قال: هو القرآن[٧٦].

١٣. ذكره الإسرائيليات:

مما يؤخذ على قتادة أنه يذكر الإسرائيليات في تفسيره، مما يجعله موضع انتقاد العلماء والدارسين، من ذلك مثلاً حديثه عن قصة آدم عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [سورة الحج: ٢٦]، إذ يقول: ((وضع الله البيت مع آدم، أهبط الله آدم إلى الأرض وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فنقص إلى ستين ذراعاً، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله، فقال: يا آدم إني قد أهبطت لك بيتاً يطاف به كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما

في تفسير الحرف (ص) الوارد في مستهل سورة ص.

(٧٤) ينظر: جامع البيان: ٢٤/ ٥٠، و٢٦/ ١٨٩.

(٧٥) تفسير القرآن: ٣/ ٧.

(٧٦) ينظر: مجمع البيان: ١/ ٣٣.

يصلى عند عرشي، فانطلق إليه، فخرج إليه آدم، ومد له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة، فلم تزل تلك المفازة على ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء))[٧٧].

أهم مصادر البحث

القرآن الكريم.

١. الإمام علي عليه السلام، أحمد الرحماني الهمداني، المنير للطباعة والنشر، ط/ ١، ١٤١٧هـ.

٢. الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، أقواله ومروياته في التفسير، عزيز الرحمن عبد الأحد، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٣ هـ.

٣. تاريخ التراث العربي، الدكتور فؤاد سزكين، تر: الدكتور محمود فهمي حجازي، راجعه الدكتور عرفة مصطفى، والدكتور سعيد عبد الرحيم، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، أشرف على طباعته ونشره إدارة الثقافة والنشر في الجامعة، ١٤١١هـ.

٤. التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط/ ١، ١٤٠٩هـ.

٥. تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، دار إحياء التراث العربي، مكتبة الحرم المكي، (د. ت).

٦. تفسير القرآن، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تح: الدكتور مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ط/ ١، ١٤١٠ هـ.

٧. التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط/ ٧، (د. ت).

٨. التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الشيخ محمد هادي معرفة، منشورات الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة، ط/ ١، ١٤١٨ هـ.

٩. تهذيب التهذيب، ابن حجر

(٧٧) تفسير القرآن: ٣/ ٣٤.

العسقلاني، دار الفكر، ط/ ١، ١٤٠٤هـ.
١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
١١. دروس في التفاسير ومناهج المفسرين، فارس علي العامر، ط/ ١، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، طهران، ١٤٢٨ هـ.
١٢. سفينة البحار، المحدث القمي، (د.ت).
١٣. سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تح: شعيب الأرنؤوط، وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط/ ٩، ١٤١٣ هـ.
١٤. شواهد التنزيل لقواعد التفضيل في الآيات النازلة في أهل البيت عليهم السلام، عبيد الله بن أحمد المعروف بالحاكم الحسكاني، تح: الشيخ محمد باقر محمودي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، ط/ ١، ١٤١١ هـ.
١٥. الطبقات الكبرى، محمد بن سعيد، دار صادر ـ بيروت، (د. ت).
١٦. الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، السيد ابن طاووس الحسني، مطبعة الخيام ـ قم، ط/ ١، ١٣٧١ هـ.
١٧. علم التفسير، الدكتور محمد حسين الذهبي، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).
١٨. علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، النجف الأشرف، ط/ ٥، ٢٠١٠م.
١٩. الكافي، الشيخ الكليني، تح: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، ط/ ٣، ١٣٨٨ هـ.
٢٠. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
٢١. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي، تقديم: محمد هادي الأميني، (د. ت).
٢٢. مدارس التفسير الإسلامي، علي أكبر بابائي، تعريب: كمال السيد، مراجعة: فريق مركز الحضارة، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي،

بيروت، ط/ ١، ٢٠١٠م.
٢٣. مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي الشاهرودي، تح: الشيخ حسن بن علي النمازي، مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، قم المشرفة، ١٤١٩ هـ.
٢٤. معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت، (د. ت).
٢٥. مقدمات في علم التفسير، السيد صدر الدين القبانجي، ط/ ٢، مؤسسة إحياء التراث الشيعي، النجف الأشرف، ١٤٢٧ هـ.
٢٦. هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).